المحاضرة الثانية:

١.٢ – الذات العارفة : الفرد والجماعة

تحتل أسطورة الفرد المنعزل و المكتفي ذاتيا موقعا مركزيا في الابستمولوجيا التقليدية. كما تؤدي هذه الفكرة دورا أساسيا وكأن الفرد المنعزل يمتلك منذ البداية القدرات الميزة لنوع البشري، بما في ذلك المعرفة الموضوعية الصادقة. تشتغل الأسطورة وكأن معارف الفرد تنبع من داخل ذاته فقط استنادا إلى مطابقة هذه الذات مع العالم الخارجي. يجد مثل هذا الموقف الابستمولوجي جذوره في نظرية الفردانية المتطرفة التي انتشرت خاصة في العصر النهضة، ثم بعد ذلك في فترة ظهور وتوسع الايديولوجيا الليبيرالية. وقد تميزت هذه الفترات بضعف التركيز على العلاقات القائمة بين الفرد والجماعة والاهتمام المتزايد بأهمية دور الفرد على مستوى الإدراك الحسي لموجودات وكذلك الاعتقاد بقوة في أولوية الطبيعة الأصلية لفرد في بلورة الذات على المستوى التجريدي.في مقابل هذا الموقف الذي يربط فعل المعرفة بجذور فردانية صرفة ويحد الذات العارفة باعتبارها ظاهرة فردانية أيضا، يؤكد كثير من المفكرين على اختلاف انتماءاتهم وفترات ظهورهم (من ابن خلدون إلىباشلار وبياجيه مرورا بماركس ومانهايم) على الطبيعة الجمعية والطابع التعاوني لمعرفة باعتبارها ثمرة تجربة جماعية تميز حياة الجماعة حيث يطور الأعضاء قدراتهم وخبراتهم في إطار مشترك يعمل على بلورة النشاط الجمعي. لذلك نجد مانهايم مثلا يشير إلى أن الفشل في إبراز الطابع الاجتماعي للمعرفة يجد جذوره في إهمال وعدم تحليل الحلقة الاجتماعية الأساسية التي يتم من خلالها تنمية وتطوير كل الخبرات والقدرات الفردية وتتمثل هذه الحلقة المهملة في الجماعة.

كما تنبغي الإشارة إلى أن الابستمولوجيا التقليدية تميز بتصورها لسيرورة الإدراك باعتبارها انبثاق وتبلور لمعرفة انطلاقا من التأمل النظري الصرف. وبلك فإنها تقوم برفع حالة خاصة واستثنائية إلى مستوى المبدأ العام. غير أن مثل هذا التصور لا يستند إلى أساس، إذ مادام فعل المعرفة يمثل في جوهره فعلا جمعيا فإنه يستدعي وجود أسرة معرفية ذات جذور متأصلة في الخبرة الجمعية التي تتوفر شروط وجودها في الممارسة والذاكرة الجمعيتين.

٢.٢ – انحياز الابستمولوجيا التقليدية

عرف مجال المعرفة العلمية المحقة في العلوم الطبيعية، والثاني في المعرفة التي تحقها العلوم الإنسانية. وقد احتدم النقاش حول مشروعية هذه التجزئة والأس التي تستند إليها ويعود الجدل إلى اختلاف التصورات الانطولوجية الخاصة بكل من العالم الطبيعي من جهة والمجتمع الإنساني من جهة ثانية. إذ ساد الاعتقاد في وجود تمايز جوهري بين طبيعة الظواهر وقائع كل من هذين العالمين، وبالتالي ضرورة تباين المقاربات والمناهج المعتمدة في دراستهما.

مادامت الطريقة المثلى لتحق من صدق المعرفة التي تعتمد على وجود عقل متجاوز لإنسان يصدر أحكاما لا تقبل الخطأ قد أثبتت فشلها، كما أن الفلسفات التي تنبت ادعاءات مطلقة بامتلاك الحقيقة عن طريق التأمل العقلي وحده أو التجربة الذاتية وحدها قد منيت بخيبة أمل تحولت إلى أنساق وثوقية مغلقة، كل ذلك أعطى مصداقية أقوى لتيار أثبت فعاليته في

تطوير العلوم الطبيعية، أنه التيار الحسي المعتمد على المنهج التجريبي. هذا إلى جانب عوامل أخرى، جعل العلوم الطبيعية تقدم نموذجا مثاليا ينبغي لكل المعارف أن تطمح إلى بلوغه إن هي أرادت اكتساب صفة العلمية.

لعل من بين العوامل الحاسمة التي جعلت هذه العلوم، بخاصة تلك التي تقبل التكميم والقياس، تحظى بالأفضلية هو استقلاليتها النسبية عن الإطار المرجعي التاريخي والاجتماعي لباحث، بمعنى تميزها بمستوى عال من التجريد. وهذا ما يجعل من جهة أخرى المعارف المتخصصة المعتمدة على التحليل النوعي تبدو ذات قيمة دنيا مادامت لاترقى إلى تبني نماذج التكميم والقياس المطورة في العلوم الطبيعية.

لكن ينبغي التأكيد أن التفوق الذي حققته هذه العلوم الأخيرة لا يجد جذوره في ظروف تاريخية ومجتمعية محددة فحسب، بل أيضا في اختلاف المعارف والرهانات التي تشكل موضوعا لكل مجموعة من هذه العلوم. ويمكنا أن نجمل التمايز القائم بين هاتين المجموعتين في نقطتين :

أولا : تميز وقائع العالم الطبيعي بقدر كبير من الموضوعانية (Objectification) والاستقلالية عن الفكر خلافا لأحداث والممارسات المجتمعية التي تكون أكثر ارتباطا بالتصورات والمواقف التي يتبناها الناس، بل أنها ولو جزئيا نتائج لها.

ثانيا : اختلاف طبيعة الرهانات التي تشكل المعرفة، بطرقة أو بأخرى، وسيلة لحلها باتجاه أواخر وفي صالح قوة اجتماعية أو أخرى. ذلك أن السيطرة على العالم الطبيعي التي تكون هدف كل معرفة في العلوم الطبيعية رغم أنها تشكل رهانا أساسيا إلا أنه مع ذلك لا يكتسي الطابع الملح والحاسم الذي يميز الرهانات في مجال العلوم الإنسانية والتي تدور حول سيطرة على المجتمع و التحكم في مساره.

بالرغم من أن السيطرة على العالم الطبيعي تبقى مهمة حيوية ما يفسر التطور المستمر في مجال العلوم الطبيعية، فإن هناك تغيرا في ميزان القوة الميز لعلاقة بين هذه العلوم والعلوم الإنسانية وذلك منذ بداية القرن التاسع عشر. هذا التغير الذي دفع العلوم الإنسانية إلى مقدمة الاهتمام ومن ثم التطور السريع على المستوين النظري و المنهجي، لكن لم يتم التخلص من سيادة نموذج العلوم الطبيعية إلا جزئيا، بل وقع تأكيدها في بعض الأحيان. وكانت النتيجة المنطقية هي سيطرة فكر إيستمولوجي يستمد مبادئه وقواعده في دراسة المعرفة وتقيمها من نموذج العلوم الطبيعية. حتى وأن عملت هذه السيطرة لفترة في صالح تطوير العلوم الإنسانية فإنها لم تؤد في النهاية سوى إلى طريق مسدودة. لعل ذلك ما يفسر تعد المحاولات التي برزت في هذا المجال من أجل تجاوز الأزمة الناتجة عن سيادة فكر ابستمولوجي منحاز بقوة نحو نموذج العلوم الطبيعية القائمة على مقاربة حسية.

هكذا عرفت العلوم الإنسانية تطور تيارات فكرية عديدة تستند إلى أساس مغايرة لتلك التي تميز التيار الحسي عموما والتجريبي بالخصوص، من ذلك علوم التأويل (meneutic Scienses) منذ القرن التاسع عشر وكذلك الفينومينولوجيا و الاثنوميثوديولوجيا حديثا. ومع أن هذه التيارات قدمت مساهمة معتبرة على المستوى النظري إلا أنها لم تنجح في تأسيس فكر ابستمولوجي بديل في ميدان العلوم الإنسانية. وباعتقادنا أنه عدا محاولتين هما الفلسفة الماركسية الحديثة " بخاصة أعمال ألتوسير " والتحليل النفسي اللذان شكلا قاعدة لعملية توليف نتج عنها النظرية الاجتماعية النقدية، وبخاصة في شكلها الحديث الذي طوره

هابرماس وكذلك عمل ميشال فوكو، وقد حاول كل منهما بطريقته التخلص من نموذج العلوم الطبيعية، فغن باقي المحاولات لم تخرج عن حدود ذلك النموذج.
تثير هذه المسألة إشكالية العلاقة بين الابستمولوجيا والمعارف المتخصصة وبالذات العلوم الإنسانية باعتبارها أكثر ارتباطا با لممارسة والتصورات الجمعية، لذلك ينبغي التوقف قليلا لتفحص هذه العلاقة.

٣ – الابستمولوجيا والعلوم الانسانية :

تخذ العلاقة بين الابستمولوجيا والمعارف المتخصصة عموما شكلين أساسين :
أما الأول فيبدو في الادعاءات التأسيسية للابستمولوجيا باعتبارها لأغنى عنها بالنسبة للمعارف المتخصصة حيث توفر لها المبررات الضرورية لنوع المعارف التي تضمنها وكذلك التصورات التي تعتمدها في إجراءاتها المنهجية سعيا وراء الحقيقة و الموضوعية، إضافة إلى ذلك تقديم المعاير التي يتم على أساسها تقيم النتائج المحصلة في هذه المعارف.
ويتجلى الشكل الثاني من هذه العلاقة في اعتماد الابستمولوجيا على منجزات العلوم المتخصصة التي تتحقق في فترات تاريخية معينة، إذ منها تستمد تصوراتها عن طبيعة المعارف التي يمكن بلوغها ومن ثم صياغة المبادئ العامة التي تؤسس عليها أحكامها ومعايرها.